الاحتكاك الاقتصادي بين أوروبا والسنغامبيا وبروز ملامح عصر المركنتالية
ما بين القرنين 15- 18 الميلادي

Economic contact between Europe and Senegambia and the emergence of features of Mercantilism (15th-18th centuries)

د. عبدالله عيسى

باحث في الدراسات الإفريقية ـ جامعة حلب {سوريا}

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث موضوعاً تاريخياً مهماً بعنوان: (الاحتكاك الاقتصادي بين أوروبا والسنغامبيا وبروز ملامح عصر المركنتالية)، وقد أشتمل على ثلاثة محاور: خصص المحور الأول، لدراسة وتتبع البعثات الاقتصادية الأوروبية الأولى إلى السنغامبيا، والثاني، التعريف بملامح العصر المركنتالي، وأهم مظاهره، والثالث والأخير، تركَّز على تبيان الاحتكار البرتغالي لتجارة السنغامبيا خلال القرنين 15 و16م، ثم تلا ذلك الخاتمة التي تشمل على النتائج والتوصيات، وخلُص البحث إلى أنَّ وصول الأوربيين إلى ساحل السنغامبيا الغربي قد شكّل نقطة تحول حاسمة في التاريخ الاقتصادي للسنغامبيا, إذ أدى وجود علاقات جديدة من التبعية ربطت الممالك السنغامبية بالتجارة الأوروبية.

الكلمات المفتاحية: الاحتكاك الاقتصادي، أوروبا، السنغامبيا، المركنتالية.

Abstract:

This study deals with an important historical topic entitled:"economic contact between Europe and Senegambia and the emergence of mercantilism". It includes three axes: The first was devoted to study and tracking first European economic missions to Senegambia. The second: the definition of the features of the mercantile era. The third and last: the Portuguese monopoly on the trade of Senegambia during the 15th and 16 the centuries. The conclusion contains some recommendations. It remarks that Europeans arriving to western coast of Senegambia was an important turning point at economic history of Sengambia;it led to a relationship of dependence towards Europe.

مقدمة:

مع أنَّ ملامح العصر المركنتالي بدأ في أوروبا مع بداية عصر الكشوفات الجغرافية، غير أنَّ سبب قدوم الهولنديين والإنكليز والفرنسيين للسنغامبيا[1] في القرن 17م ، كان تحقيق المكاسب التي حققها البرتغاليون خلال القرنين 15 و 16م , إذ استخدموا في البداية ذات الأساليب التجارية التقليدية المتمثلة بتجارة الترانزيت ، وبقاء تجارتهم على السواحل، ولم يدخلوا أي أنظمة جديدة حتى القرن 17م، إلا تجارة الرقيق للعالم الجديد.

ومما تجب الإشارة إليه هنا، أنَّ الأنظمة الاقتصادية البرتغالية لم تستطع مواجهة الأنظمة الاقتصادية الرأسمالية الناشئة في أوروبا الغربية، والمتمثلة في شركتي الهند الشرقية الهولندية والإنكليزية، وبالتالي لم تتمكن من الصمود أمامها. وتبعا لذلك، انحطت زراعة البرتغاليين وصناعتهم، في حين نمت ثروات الإنكليز والهولنديين وازداد دخلهم وانتاجهم، فظهرت في أراضيهم المؤسسات التجارية الخارجية، كما ظهرت المصارف التي تمد تجارهم بالمال مع استمرار نفس وسائل الإقراض التجارية الأخرى، فورثوا البرتغال في السنغامبيا، وبدأت ملامح العصر المركنتالي تظهر بوضوح وقوة.

ولفهم عملية الاحتكاك الاقتصادي بين أوروبا والسنغامبيا في العصر المركنتالي وجِبَ تقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة محاور رئيسية:

[1] ـ يرجع الفضل في استعمال هذا الاصطلاح وترسيخه في حقل الدراسات الإفريقية للبحاثة الغيني الأصل بُكر باري (B. Barry)، الذي سعى في معظم دراساته إلى توظيفه والترويج له. ويشمل جُلّ المناطق الواقعة ما بين نهري السنغال وغامبيا؛ من منبعيهما بأعالي فوتاجالون إلى مصبيهما في المحيط الأطلسي. بمسافة تُقدر بـ 1350 كم² من الغرب إلى الشرق، و 900 كم² من الشمال إلى الجنوب. والجدير بالذكر أنَّ هذا المجال، الذي يعني موضوع دراستنا، قد تواضعت الدراسات والأبحاث التاريخية على تسميته على مرّ الزمن، بمصطلحات عديدة، منها على سبيل المثال: "بلاد التكرور"، و"بلاد السودان"، و"إفريقيا الغربية"، و"السودان الغربي"، إلى غير ذلك من الاصطلاحات التي تؤدي ـ تقريباً ـ المعنى والدلالة ذاتها.

Saint- Martin (J.Y.),1989, Le Sénégal Sous le second empire: naissance d'un empire colonial, 1850-1871, Paris, Karthala, p. 60.

- Barry (B.),1988, La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére, Islam et conquête coloniale, Paris, éd. L'Harmattan, p. 27.

- المحور الأول – البعثات الاقتصادية الأوروبية الأولى للسنغامبيا
- المحور الثاني – بروز ملامح العصر المركنتالي
- المحور الثالث – الاحتكار البرتغالي لتجارة السنغامبيا في القرنين 15 و16م

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع بدايات الوجود الأوروبي بمنطقة السنغامبيا، وذلك من خلال تسليط الضوء على أولى البعثات التجارية وعن أهدافها، كما تسعى أيضاً، إلى تعريف القارئ على أهم عوامل بروز ظاهرة المركنتالية، ونتائجها على المجتمع السنغامبي، والذي تمثل بتغيير الخارطة السياسية والاجتماعية للسنغامبيا.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في أنها تحاول سد ثغرة من ثغرات تاريخ السنغامبيا الاقتصادي, هذا التاريخ الذي تغافلته وتجاهلته معظم الدراسات والأبحاث التاريخية، والتي تركزت وأسهبت في دراسة الجانب السياسي للمنطقة.

أسباب اختيار الدراسة:

أما فيما يتعلق بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع، الذي عنوناه بـ: (الاحتكاك الاقتصادي بين أوروبا والسنغامبيا وبروز ملامح العصر المركنتالي ما بين القرنين 15و18م). فيمكننا تلخيصها في الاعتبارات التالية:

- التعرف على البدايات الأولى للاحتكاك الاقتصادي بين أوروبا والسنغامبيا خلال العصر الحديث.
- إبراز دوافع وأهداف التدخل الأوروبي في السنغامبيا خلال القرنين 15 و18م.
- الرغبة في سد فجوة من فجوات تاريخ السنغامبيا الحديث، ولملمة حلقاته المفقودة.
- قلة الدراسات والأبحاث العربية المتعلقة بالجانب الاقتصادي.

بناء على ما تقدم، نسعى في هذه الدراسة إلى وضع تاريخ السنغامبيا أو "إفريقيا الغربية" بالمفهوم الحديث، على مائدة البحث لإعادة كتابته بطريقة علمية تتوخى الدقة والموضوعية - قدر المستطاع – وأيضا العمل على إبراز الحقائق التاريخية المنزهة والبعيدة عن الأغراض والنوايا المبيتة.

إشكالية الدراسة :

تحاول هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة التالية:

- ما هي أهم البعثات التجارية الأوربية إلى السنغامبيا؟ وماذا عن أهم اهدافها؟
- ماذا نقصد بالمركنتالية؟ وكيف نشأت؟ وما هي أهم نتائج ظهورها على السنغامبيا؟
- ما هي أهم مظاهر الاحتكار البرتغالي للتجارة السنغامبية؟

هذه إذاً مجمل الأسئلة التي سنعمل على مناقشتها في هذه الدراسة، وهي بطبيعة الحال، لم تخلُ كغيرها من الدراسات من بعض النواقص والعيوب، لأنَّ بلوغ الكمال لله وحده. وأخيراً، أرجو من الله أن تكون هذه الدراسة بمثابة لَبِنَةٍ جديدة في حقل التاريخ الأفريقي، ومساهمة متواضعة في إعادة كتابة تاريخ منطقة السنغامبيا.

منهج الدراسة:

المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج السردي التاريخي، ومقارنة المعلومات من المصادر والمراجع بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

الدراسات السابقة للموضوع:

حقيقة يمكننا القول، أن الدراسات والأبحاث التاريخية العربية المتعلقة بالجانب الاقتصادي للمنطقة، هي قليلة وإن لم نقل نادرة , ويرجع سبب ذلك ، إلى قلة وندرة المادة العلمية المتعلقة بهذا الجانب , على عكس الجانب السياسي والديني الذي يشهد وفرة في الدراسات لا يمكننا تجاهلها أو إنكارها, وتبقى الدراسة التي قام بها (أ.ج. هوبكنز) ، **(التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية)** مهمة للغاية، وفيها مادة خصبة ومهمة، ولكن المتصفح لها سيكتشف أنَ الترجمة إلى العربية كانت دون المستوى المطلوب , مما أثر سلبا على قيمة العمل , أما الأبحاث الغربية الأوروبية، فهي كثيرة وفيها معلومات جيدة , لكن النظرة الاستعمارية المتحيزة تبقى السمة الطاغية عليها, لذلك وجب علينا التعامل معها بحذر وروية.

المحور الأول – البعثات الاقتصادية الأوروبية الأولى للسنغامبيا:

نظراً لرغبة أوروبا في استغلال خيرات السنغامبيا وإنهاء السيطرة العربية على التجارة، قامت بإرسال بعثات فردية قبل قيامها بالكشوفات الجغرافية التي نعرفها, حيث لعب العامل الاقتصادي دوراً مهماً في ترتيب تلك البعثات وإرسالها, وفي هذا الباب تنافست المدن الإيطالية مع بعضها البعض في الوصول إلى أسرار ذهب بلاد السودان[2]، وحاولت التعرف على آليات الحصول عليه ، لإفقاد مدن البحر المتوسط العربية المتحكمة فيه، قوتها الاقتصادية. فقام سنتريوتي الإيطالي بإرسال بعثة مكونة من ثلاثة أفراد، هم انطونيو ملفانتي، وبنديتو توداي، وكادامستوا للسنغامبيا عام 1443م، وأرسلت البرتغال بدورها دي كوفيلهام، والفونسو بايفا إلى شرق إفريقيا. [3]

على أية حال، اهتمت البعثة الإيطالية المرسلة للسنغامبيا بتعقب تجارة الذهب هناك، باعتبارها من أغنى المناطق به، غير أنَّ ملفانتي فشل في التقدم إلى أبعد من توات المغربية، وبالتالي عجز عن اكتشاف آلية هذه التجارة، إلا أنَّ أهم ما تحدث به في تلك الرحلة هو مجيء التجار المصريين والمغربيين للتجارة في تلك المنطقة، وأنَّ التجارة مع المناطق الاستوائية تتحكم فيها جالية تجارية تمارس احتكارا فعلياً، عن طريق فرض عمولة تقدر بحوالي 100 % عن كل صفقة.

[2] – تشمل بلاد السودان منطقة واسعة في غرب إفريقيا تنحصر بين الصحراء في الشمال، والغابات الاستوائية في الجنوب، وتمتد شرقا إلى حدود مرتفعات الحبشة، وغربا إلى المحيط الأطلسي. وعليه نرى أن حدود المنطقة حدودا طبيعية، وتتميز تضاريسها بالاستواء العام فهي عبارة عن هضبة متوسطة الارتفاع، تتخللها بعض المرتفعات الجبلية الماندينكا (400م إلى 780م). كما نجد تداخلا بين الصحراء والهضبة، خاصة عند تاودني. يجري بالمنطقة نهران رئيسيان هما نهر السنغال، ونهر النيجر،الذي سماه الرحالة والجغرافيون العرب أحيانا نهر النيل أو بحر النيل، نظرا لأنه يغمر مناطق شاسعة وقت الفيضان، وبه جزائر صغيرة، وفروعا، ودلتا، خاصة في مجري النيجر الأوسط. كما تتميز المنطقة بوجود مستنقعات وأدغال. وقد درج الباحثون على تقسيم المنطقة إلى ثلاثة أقسام: السودان الغربي ويشمل حوض نهر السنغال، ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر. القسم الثاني: السودان الأوسط ويشمل حوض بحيرة تشاد، القسم الثالث : السودان الشرقي يشمل الحوض الأعلى لنهر النيل جنوب بلاد النوبة، وهذا القسم الأخير غلب عليه عند العرب فيما بين القرن 9 و12 اسم بلاد الزنج. . راجع: عبدالله، عيسى، "الإسلام كمرجعية لمملكة مالي خلال القرن 8هـ/ 14م"، مجلة البيان الإسلامية، الرياض، العدد 322 جمادى آخر لعام 1435هـ، ص. 3– 4.

[3] - محمود محمد الحريري، 1986، ساحل شرق إفريقيا منذ فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي، القاهرة، دار المعارف، ص. 74.

وعرفنا من خلاله أنه من غير المسموح له بالتوغل في الداخل، وأنها أسرار لا يمكن لأجنبي الإطلاع عليها, في حين راح كادمستو يشرح تجارة الذهب القادمة من مملكة مالي[4]، وأنها تمر بثلاثة أجزاء : أولهما ، لمكان يُسمى كونسيا على الطريق المؤدي للقاهرة ودمشق. وثانيها وثالثها، تلك التي تحملها قوافل مالي إلى تنبكت[5]، ومنها جزء يُحمل لبلاد تونس، والباقي لبلاد الهوسا[6] ومنها لوهران وفاس ومراكش. أما بنديتو فقد وصل لتنبكت، وأشار إلى التجارة الواسعة التي كانت تشهدها المدينة من وقت لآخر، بحسب وصول القوافل إليها، وكانت الملابس والأقمشة الصوفية من السلع التي لفتت انتباهه في هذه التجارة.

ويظهر أنَّ الثلاثة فشلوا في إيجاد طريقة لمساعدة مدنهم جنوة وفلورنسا، لمد تجارتهم إلى أعماق أو دواخل إفريقيا , ولهذا كان عليهم البحث عن طرق أخرى للتغلغل في إفريقيا الاستوائية. لكن المشكل المطروح هو أن منتجات الشرق غالية الثمن، وتكاليف النقل البحري بالسفن باهضة للغاية، ناهيك عن أن التكاليف المالية لا تسدد إلا بالذهب، وهو يتدفق على المشرق العربي من السنغامبيا مما يلحق ضررا بالغا بالتجارة الأوروبية. من ثمة، باتت هناك ضرورة ملحة لاكتشاف طريق بحري إلى الهند , ونتيجة

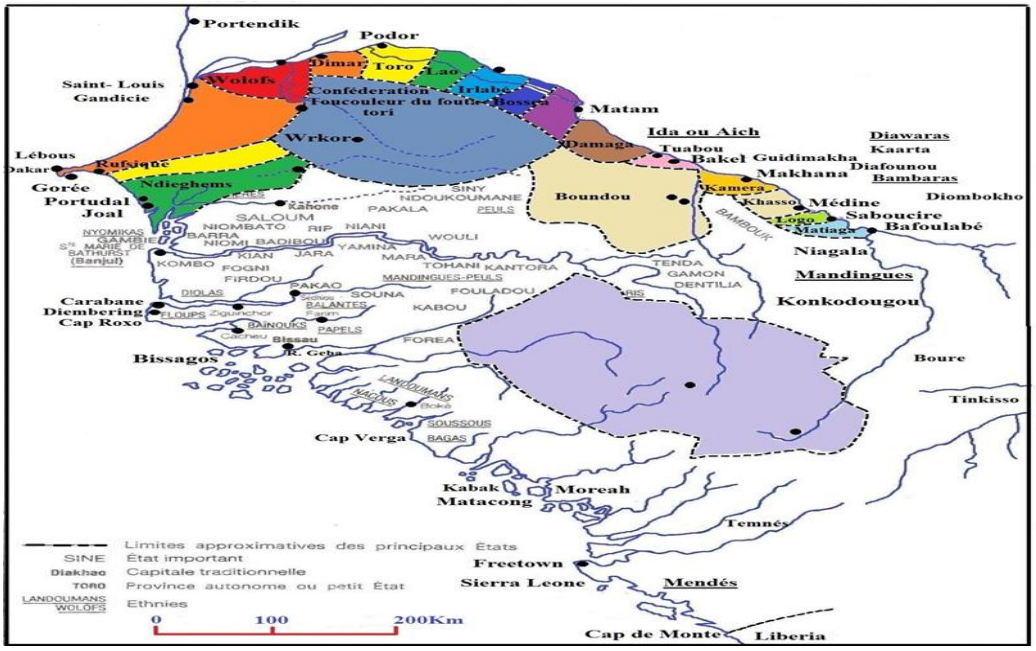
---

[4]- مملكة مالي: تعتبر هذه المملكة من أهم وأبرز الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا خلال العصر الوسيط؛ واستمرت منذ عام 1230حتى 1430م. أسس هذه المملكة شعب زنجي أصيل هو شعب الماندي أو الماندينغ (Manding)، وكلمة مالي تحريف لكلمة ماندنجو، ومعناها الذين يتحدثون لغة الماندي. وقد اعتنق هذا الشعب الإسلام في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (11م)، حيث اعتنق أول ملك منهم الإسلام حينئذ ويُعرف بالمسلماني. وتمكنت هذه الدولة الصغيرة التي بدأت بمملكة كانجايا أنْ تتملك قوَّة عسكرية في منطقة نياني (Niani)، وهي مدينة تقع غرب نهر النيجر، وليست بعيدة عن حدود غينيا الحديثة، وارتبط ظهور مملكة مالي بشخصية سندياتا أو ماري ماري جاطة (ت. 1255م)، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه المملكة، وقد حكم عرش مالي - حسب رواية ابن خلدون - مدة خمسة وعشرين عاماً. راجع: عبالله عيسى، الإسلام كمرجعية لمملكة مالي خلال القرن 14م ، م.س، ص. 3.

[5] - تنبكت: لا نعرف في الواقع إلا الشيء القليل عن البدايات الأولى لتنبكت. ويبدو أنها نشأت على يد القبائل الرحل من طوارق مغشرن منذ أواخر القرن 5هـ/11؛ بحيث كانت في البداية منتجعا لهم، ثم أخذت تنمو وتزدهر على حساب ولاتة التي بدأ الضعف يدب إليها بسبب التحول الذي طرأ على المسالك التجارية. فبدأت المدينة الجديدة تستقبل المهاجرين من ساكنة بيرو وغيرهم من الوافدين على بلاد السودان.

[6]- الهوسا: تشمل بلاد «الهوسا» ما يُعرف الآن بنيجيريا الشماليَّة، وجزءًا من جمهوريَّة «النيجر»، وكانت تقع في العصور الوسطى في المنطقة المحصورة بين سلطنتي مالي و سنغاي غربًا، وسلطنة البرنو شرقًا، تحدُّها من الشمال بلاد «أهير» والصحراء الكبرى، ومن الجنوب ما يُعرف الآن بنيجيريا الجنوبيَّة.

لمجمل هذه المعطيات ، يمكننا القول إن الأسباب الاقتصادية شكلت الحافز والدافع الأساسي ، لتلك المغامرة الاستكشافية الرامية إلى الدوران حول إفريقيا (مرورا بالساحل السنغامبي) بغرض الوصول للهند.[7]



بلاد السنغامبيا نقلاً عن: بُبكر باري بتصرف (**La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p**. 28.)

المحور الثاني ـ بروز ملامح العصر المركنتالي:

المركنتيلية هي مرحلة الحرية التجارية خلال الفترة من 1500 ـ 1800م. ويقوم أساس هذا التوجه أن ليس من ثروة إلا ثروة الذهب، ونتيجة لذلك يجب أنْ نشتري كل شيء ممكن، وأنْ نبيع أكثر شيء ممكن، لكي نجمع أكبر كمية ممكنة من الذهب.[8] ومن ثمة اعتبرت مذهباً اقتصادياً، عبّرت به المجتمعات الأوروبية عن مصالحها. وساهمت عوامل عديدة في بروز ظاهرة المركنتيلية، من أهمها:

- تحولات اقتصادية: تمثلت بانتقال أوروبا تدريجيا من الفلاحة التقليدية إلى التجارة والخدمات.
- تحولات اجتماعية: تجلت بتراجع نفوذ الطبقة الفيودرالية، والنمو التدريجي للبورجوازية.

[7] ـ أحمد عبد الدايم، تاريخ إفريقيا الاقتصادي في عصر ما قبل الاستعمار، 2013، القاهرة، منشورات وحدة الإعلام والتوعية بالشؤون الإفريقية، معهد الدراسات الإفريقية، ص. 65.

[8] ـ جوزيف ـ كي ـ زيربو، 2001، تاريخ إفريقيا السوداء، ترجمة، عقيل الشيخ حسين، مصراتة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ص. 362.

- تحولات فكرية: اتسمت بانتشار الحركة الإنسية.
- أما التحولات سياسية، وضع أسس الدولة الحديثة في أوروبا.

ولنفهم ملامح العصر المركنتالي أكثر علينا أنْ نتعرف على عناصر السياسة الاقتصادية الستة التي اعتمدتها دول أوروبا في تلك الحقبة، وهي كالتالي:

- فرض الضرائب على الواردات.
- الاهتمام بالتجارة الخارجية.
- الاهتمام ببناء المحطات التجارية للحصول على أكبر قدر من الربح.
- فرض القيود على المعادن النفيسة واستغلال المناجم.
- توفير اسطول تجاري.
- استخدام جهود الدولة ونفوذها لتحقيق هذه الأغراض. [9]

ومن ثم فإنَّ أهم النتائج التي ترتبت على تلك السياسة الاقتصادية الأوروبية، خمسة: أولها، سيطرة أسلوب النهب والاستنزاف للثروات الطبيعية والبشرية من السنغامبيا. ثانيهما، ادماج المحطات التجارية السنغامبية في السوق العالمية. ثالثها، الانتقال من العصور الوسطى للعصور الحديثة. رابعها، نمو طبقة التجار وتحالفها مع المصالح الأجنبية ورغبتها في هدم النظم الاجتماعية والقبلية. خامسها، تغيير في العادات الاجتماعية وبداية التحلل الأخلاقي.[10]

ونشأت المركنتيلية في أوروبا خلال القرنين 15 و16م بدوافع اقتصادية ودينية، للقيام بالكشوفات الجغرافية مما مكنها من الوصول إلى الهند، واكتشاف عوالم جديدة ترتب عليها نتائج هامة غيرت مسار العلاقات التاريخية في أوروبا والعالم.

وجدير بالذكر أنَّ المذهب المركنتالي قد تأسس كتيار فكري في القرن 15م، واستمر حتى القرن 18م، والمركنتالية مصطلح يُنسب لكلمة مركنتي الإيطالية، وتعني تاجر. ويقوم هذا الفكر على مبدأين أساسين: أولهما، يربط قوة الدولة بمدى ما تتوفر عليه من معادن نفيسة، وثانيهما، يقوم على توجيه الدولة للإقتصاد، وبذلك بخلق صناعات محلية لضمان القدرة على مواجهة المنافسة الخارجية وضمان الأسواق،

[9] ـ أحمد عبد الدايم، تاريخ إفريقيا الاقتصادي في عصر ما قبل الاستعمار، م.س، ص. 66.
[10] ـ نفس المرجع، ص.67.

مما يفرض عليها ضرورة مراقبة جودة المنتوجات الصناعية عن طريق سن قوانيين صارمة , واختلفت خصائص ومظاهر الفكر المركنتالي حسب سياسة الدولة: ففي فرنسا على سبيل المثال، كان هناك اهتمام بالصناعة كأساس لجلب وجمع المعادن النفيسة. أما إنكلترا فقد توجه اهتمامها إلى تأسيس شركات تجارية كبرى ، وفرض قوانين ملاحية للحماية التجارية والاهتمام بالمعادن، والهدف من ذلك تحقيق فائض في الميزان التجاري عن طريق تراكم المعادن النفيسة في خزائن فرنسا وإنكلترا , وكان للاكتشافات الجغرافية نتائج اقتصادية هامة ، تمثلت في سيطرة الأوروبيين على التجارة العالمية الرائجة بين القارات ، وانتعاش التجارة الأطلسية , فتدفقت ثروات هائلة على أوروبا، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار واستنزاف ثروات وخيرات السنغامبيا ,[11] وفي المرحلة المركنتالية الأولى ، كانت أهم أنواع السلع التي تاجر فيها البرتغاليون هي الزباد (نوع من الطيب) والأرز والحصائر والأكياس والمنتجات الصاجية المنحوتة، وخاصة الملاعق والأوعية ذات القواعد، والذهب والفلفل. [12]

ومما تجب الإشارة إليه أنه خلال هذه الحقبة التجارية، كان هناك تنافس كبير فيما بين دول أوروبا الغربية على التجارة العالمية، فنشأت تجارة بحرية بين أوروبا والسنغامبيا خلال النصف الثاني من القرن 15م ، أتاح للسنغامبيا فرصاً كانت بحاجة إليها لتحقيق تحول اقتصادي واجتماعي سريع, حيث اتسعت تجارة الذهب، وبدأ الإتجار في المواد الزراعية، كالفلفل، بالإضافة إلى ريش النعام والكاوكاو، وتم تشجيع منتجات الأقمشة السنغامبية. [13]

وتزودنا الوثائق البرتغالية بأنه بالإضافة إلى الذهب كانت توجد تجارة في الأرز والزباد والحصائر والأكياس والمعالق والأوعية، ووصل ذهب السودان إلى أسواق أنفرس، وكان للكشوفات الجغرافية أثر في ذلك , حيث فُتح الساحل الغربي من السنغامبيا للتجارة العالمية ، غير أنَّ أهم تغيير حدث في القرنيين 17 و18م، هو تهميش المنطقة السودانية، وظهور مجتمعات جديدة على الساحل. [14]

[11] - Walter (R.), 1973, How Europe Underdeveloped Africa, London, p. 157.
[12] - Barry (B.), La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p.71.
[13] - كي - زيربو، تاريخ إفريقيا السوداء، م.س، ص. 348- 349.
[14] - La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 72.

وسبق لبروديل (F. Braudel) أن نبّه إلى الدور الذي لعبته التجارة الأطلسية بالمنطقة في إضعاف الإمبراطوريات الكبيرة وتشجيع قيام الممالك الصغيرة , [15] ففي القرن 17م ترسخت التجارة الأوروبية بصورة شبه دائمة ، مع نمو القوة البحرية للهولنديين، الذين أجادوا تنسيق النظام المركنتالي العالمي، وأنشأوا شركات هولندية، لاحتكار التجارة مع السنغامبيا وأمريكا، ورغم أنَّ الأهالي ثاروا على الاحتكار الصارم الذي مارسته الشركات التجارية، فإنهم كانوا مع ذلك عملاء في خدمة الرأسمالية الأوروبية. [16]

وفي هذا الاطار، يمكن ايجاز ملامح العصر التجاري المركنتالي في السنغامبيا في خمسة أمور هي:

1. تنافس قوي فيما بين دول أوروبا خلال هذه الفترة على احتكار التجارة في السنغامبيا.
2. إنشاء تجارة بحرية بين السنغامبيا وأوروبا، وتحول اقتصادي واجتماعي سريع , حيث اتسعت تجارة الذهب، وتم تشجيع منتجي الأقمشة من أهالي السنغامبيا وذلك بالتعاون مع البرتغاليين والهولنديين بغرض توزيعها في أنحاء مختلفة من الساحل السنغامبي.
3. قادت تجارة الرقيق منذ القرن 16م ، إلى ايقاف العمليات المؤدية لتوسيع نطاق التجارة بين المجالات السنغامبية، فتوقف تطوير الأسواق الداخلية، والمؤسسات السوقية، وتسويق الزراعة، والتطور العام لتقسيم العمل.
4. لعبت السنغامبيا دوراً مهماً في القرن 19م في تفوق أوروبا وأمريكا على آسيا, حيث ساعدت الأيدي العاملة الإفريقية بين القرنين 16 – 19م في حيازة أوروبا لنواتج العمل في القارات الجديدة، وبالرغم من أنَّ أسعار آسيا كانت أغلى من أوروبا في تلك الفترة ، إلا أنَّ الثورة الصناعية في القرن 19م جعلت أوروبا تفرض نموذجها على آسيا, وعلى هذا كانت الضغوط على النمو كبيرة للغاية، حيث تسبب الأوروبيون بالإضافة للمشاكل الداخلية الإفريقية، في عدم انطلاق إفريقيا جنوب الصحراء كأوروبا وآسيا بإتجاه التنمية.[17]

---

[15] ـ فرناند بروديل، 1993، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، ترجمة، مصطفى ماهر، باريس، ج. 3، ص. 541.

[16] ـ أحمد عبد الدايم، تاريخ إفريقيا الاقتصادي في عصر ما قبل الاستعمار، م.س، ص. 67.

[17] ـ أ.ج. هوبكنز، 1998، التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، تقديم، محمد عبد الغني سعودي، ترجمة من الإنكليزية، أحمد فؤاد بلبع، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ص. 153.

المحور الثالث – الاحتكار البرتغالي لتجارة السنغامبيا في القرنين 15 و16م:

شكل وصول البرتغاليين إلى ساحل السنغامبيا الغربي خلال النصف الثاني من القرن 15م، نقطة تحول هامة في تاريخ السنغامبيا,[18] إذ أدى إلى بداية تفسخ العلاقات القائمة على التبادل التجاري عبر الصحراء، وحلول علاقات جديدة من التبعية ربطت الممالك السنغامبية بالتجارة الأوروبية.[19]

وقد حرص ملوك البرتغال على امتداد القرنين 15 و 16م، على التزود من منابعهما الأصلية, لذلك قاموا بمحاولات للوصول إلى ذهب السودان عبر المسالك النهرية للسنغال وخاصة نهر غامبيا،[20] إلا أنَّ تلك المغامرة تعثرت بسبب صعوبة الملاحة في نهر السنغال، بوجود شلال الفيلو (Felu)، وسيطرت

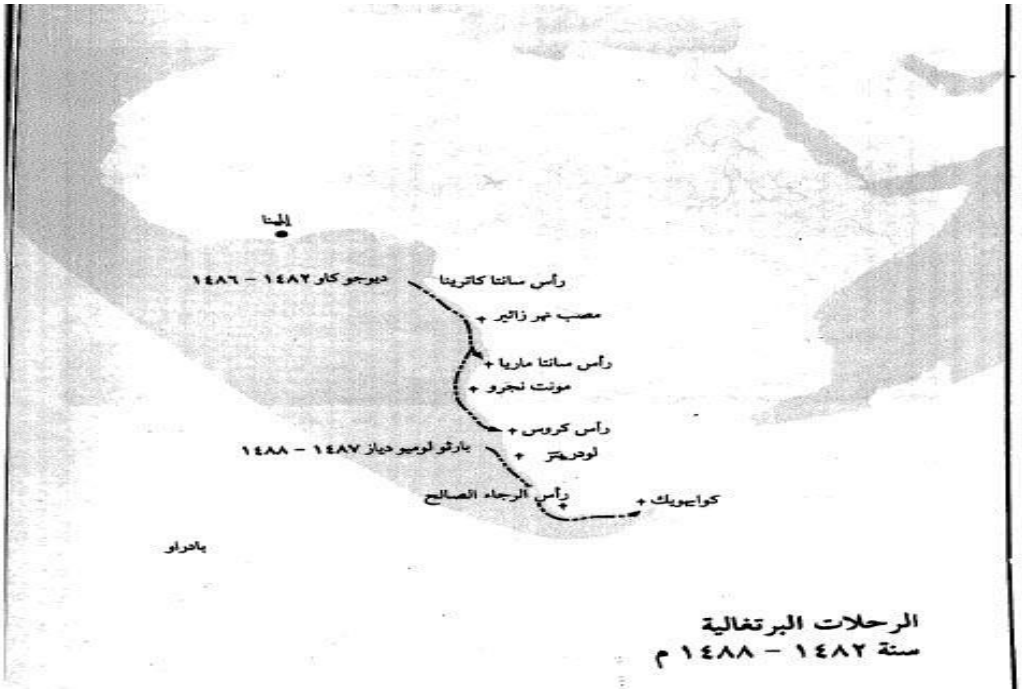
---

[18]- لنا أنْ نتساءل هنا، عن الأسباب التي جعلت البرتغاليين يسبقون غيرهم من الأوروبيين في التنافس على اكتشاف ساحل السنغامبيا الغربي. ولعلَ من أهم الأسباب التي تتبادر إلى الذهن هنا، كون البرتغال بحكم موقعها الجغرافي بات البحر متنفساً مركزياً لطموحها، فهي معزولة عن أوربا بجارتها الكبيرة "إسبانيا" مما يمنعها من محاولة التوسع في نطاق الصراع على المجال الحيوي داخل القارة الأوروبية. وهي من جهة ثانية، لا تمتلك أي منفذ على البحر الأبيض المتوسط عكس إسبانيا وفرنسا. ومن جهة آخرى، فإن البرتغال كانت أثناء القرن الخامس عشر، شأنها في ذلك شأن إسبانيا، تعيش أوضاعاً سياسية أكثر استقراراً من بقية الدول الأوروبية التي كانت حينئذٍ مشغولة بمشاكلها الخاصة , وفضلاً عن ذلك فإن سياسة هنري الملاح قد جعلت البرتغال تتبوأ مكانة السبق في حركة الكشوفات الجغرافية تلك، فقد جمع ذلك الأمير الملاح الذي يقال أنه لم يركب البحر إلا مرة واحدة ، مختلف المعلومات الجغرافية والملاحية المتاحة في ذلك الوقت، وكوَن مكتبة ضخمة تضم الكثير من الكتب الجغرافية والخرائط من مختلف أنحاء المعمورة، كما قرَب العلماء والجغرافيين واعتنى بصناعة السفن حتى غدت البرتغال بفضله تملك أسطولاً حديثاً يستطيع اقتحام البحار. وبغض النظر عن العوامل والأسباب التي جعلت البرتغاليين يسبقون غيرهم من الأوروبيين إلى اكتشاف فضاءنا الجغرافي، فإنّ رحّالي هذه الفترة قد خلفوا أولى المصادر الأوروبية المتعلقة بتاريخ السنغامبيا. راجع: محمدو ابن محمذن، 2000، المجتمع البيضاني في القرن 19: قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ص. 59.

[19]- La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 70.

[20]- يوصف الذهب بأنه المادة الأولى التي كانت وراء تنشيط التبادل التجاري بين السنغامبيا وبلدان العالم منذ القديم، وصلت تجارته إلى قمة ازدهارها خلال حكم مملكتي غانة ومالين وخاصة بعد رحلة منسى موسى وأسكيا الحاج محمد ملك سنغاي إلى الحج، اللذين حملا إلى الحجاز كميات ضخمة من الذهب الخالص، وأصبحت السنغامبيا بذلك قُبلة التجار من كل جهة ومكان، مما أكسبها شهرة عالمية وصلت إلى كل البقاع. راجع: القاضي محمود كعت، 1981، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وآكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، باريس، ميزونوف؛ وهي النشرة الثانية عن الطبعة الأصل الصادرة عام 1913 ـ 1914. وقف على طبعه من تغيير نصه مع ترجمته للفرنسية أوكتاف هوداس وموريس دولافوس، ص. 16 -65. عبد الرحمن السعدي، 1981، تاريخ السودان، باريس، ميزونوف؛ وهي النشرة الثانية عن الطبعة الأصل الصادرة عام 1898 ـ 1900. وقف على طبعه من تغيير نصه مع ترجمته للفرنسية أوكتاف هوداس و السيد بينوة ص. 72- 73.

الماندينغ على نهر غامبيا, مما أجبرهم على القيام بتجارتهم على الساحل الأطلسي، وعلى مصبات نهري السنغال وغامبيا، انطلاقاً من جزر الرأس الأخضر. [21]



نلاحظ من خلال هذه الخريطة، أنَ نوعية الأماكن التي شملها الكشف البرتغالي خلال القرن 15م هي كلها ذات موارد بالمفهوم العام، ومتركزة في المنابع المائية منذ قديم الزمان، ثم الطرق البحرية التجارية وعبور الصحراء فيما بعد، وهي كلها مجالات غنية بالثروات والموارد الطبيعية.

وعلى الرغم من تلك الصعوبات علينا التأكيد بأن البرتغاليين، هم أول من أنشأ محطات تجارية كانت في الواقع نقط الالتقاء التجارية الأولى بين السنغامبيا وأوروبا [22], كان أولها حصن ألمينا الذي تمَّ بناءه عام 1481م على ساحل الذهب[23]، واستخدمت أسلوب العطايا و الاسترضاءات للحكام المحليين.

[21]– Godinho, Magalhzes, V, 1969, l'Economie de l'empire portugais aux XV XVI siècle, Paris, MSH, p.190.

[22] ـ لقد كانت المحطات التجارية بمثابة أسواق المرور العابرة، حيث تتاجر في السلع الأساسية، وهي ليست مكاناً للأنشطة الإنتاجية، بل مكان للمشاريع التجارية، بها مخازن، ووسطاء وتجار من كل الأجناس، ربطت بين مختلف مناطق غرب وشمال غرب إفريقيا، وبين جميع مدن الأسواق اليومية الصغيرة والكبيرة. وكانت تلك المحطات عبارة عن أماكن لبيع السلع المحلية وشراء السلع المستوردة، وكانت تُملئ بالمحاصيل الغذائية، والخضروات وغير ذلك من السلع مثل الجلود؛ كما كان بهذه المحطات أماكن خاصة بالأطعمة

وإذا كان مركز آركين [24](Arquin) لم يفِ بحاجيات أو متطلبات الوكلاء التجاريين من العبيد والذهب، على حد قول كودينيو والذي حدد المتوسط السنوي من مادة الذهب المصدرة ما بين 30 كغ إلى 40 كغ سنوياً عبر محطة أكسيم (Axum) خلال عامي 1499 و 1501م،[25] فإنَّ وصولهم إلى أعالي نهر غامبيا مكَّنهم من خلق طرق جديدة, لتصبح وولي [26] (Wuli)وكانتورا (Kantura) محطات أساسية لاستقبال ذهب مناجم بامبوك [27]وبوري، الذي كان تصريفه في السابق يتجه نحو مراكز الحوض الأوسط لنهر النيجر، ومنها ينقل ينقل إلى المراكز التجارية شمال الصحراء [28].

يقول فالنتين فرناندس (V. Fernandes) بهذا الصدد: "إنَّ وصول البرتغاليين إلى أعالي غامبيا يعتبر منعطفاً تاريخياً بالنسبة لذهب السودان، وكان هذا النبأ مذهلاً، حيث استقطب التجار من كل صوب، وتوافد على كانتورا تجار تنبكت و فوتاجالون[29] و كاو". [30]

المطبوخة، كالعصيدة وأيضا المشروبات الكحولية مثل البيرة، ناهيك عن المواد المواد الغذائية الأساسية مما يحتاجه التجار على الأرض أو في البحر. ويجري استئجارها بمقتضى معاهدات تتمُ أحياناً بالقوة، وأحياناً بالسلم.

[23] ـ ساحل الذهب (**Gold Coast)**: هو الاسم القديم لدولة غانا الحالية، وكان مستعمرة بريطانية على خليج غينيا في غرب إفريقيا منذ عام 1867م إلى استقلالها باسم غانا في عام 1957. وقد أطلق اسم "ساحل الذهب" على الإقليم الذي كانت تصدر منه كميات كبيرة من الذهب إلى البرتغال.

[24]- آركين: جزيرة تقع على الساحل الأطلسي الموريتاني على بعد حوالي 130 كم إلى الجنوب من نواذيبو، ويبلغ طول هذه الجزيرة حوالي 7 كم وعرضها حوالي 4 كم. وتُسمى أيضاً بـ: أكادير و أكادير دومة. وقد تنافست دول أوربية عديدة خلال القرون الماضية للسيطرة على هذه الجزيرة، التي تعتبر مركزا للتبادل التجاري مع الشناقطة. راجع: محمدو ابن محمذن، المجتمع البيضاني، م.س، هامش صفحة 58.

[25]– La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 73.

[26]- وولي (:**Wuli)**مركز تجاري هام ويعتبر نقطة انطلاق القوافل التي تربط غامبيا بالشمال في أعالي السنغال، ويربطه بالشرق مع النيجر.

[27]بامبوك: تشغل هذه المملكة الزاوية الشرقية التي يشكلها التقاء نهر السنغال برافده نهر الفاليمي، ومما يميز ساكنة هذا الإقليم، تعلقها بالوثنية، وعداؤها للإسلام، ورفضها الانصياع لحكم الدول الإسلامية التي كانت في نظرها توظف الدين للاستيلاء على ثروات البلاد الثمينة. وتشتمل أرضها على أغنى مناجم الذهب والحديد في السنغامبيا، الذي أسال لعاب التجار والمستكشفين الأجانب الذين حاولوا السيطرة على إنتاجه.

[28]– La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 71.

[29]فوتاجالون: تقع جنوب حوض السنغال الأدنى، وتعتبر حفيدة مملكة التكرور، وتاريخ هذه المملكة غريب الأطوار؛ فقد كان يحكمها بعض المهاجرين البيض من غانا أحياناً، ومن الولوف، ثم الفولاني. وتعتبر فوتا جالون الموطن الأصلي لشعب الفولاني، الذين قد أسلموا منذ عهد مبكر، وفي القرن 15 كونوا لأنفسهم أسرة حاكمة، استمرت في الحكم حتى نهاية القرن 19م.

وتدلنا هذه الأرقام على أهمية غامبيا في تسويق الذهب السوداني قبل أنْ يتراجع لصالح تجارة الرقيق .وبالإضافة إلى تجارة الذهب، فقد احتلت تجارة الجلود أهمية كبيرة في التجارة البرتغالية نظراً لتزايد طلبها في أوروبا، حيث بلغت الكمية المصدرة عام 1660م، 150 ألف قطعة. وقد صدّر مركز روفسك (Rufisque)[31] وحده ما بين 35 و 40 ألف قطعة عام 1660 بحسب ما يذكره ببكر باري.[32]

إنَّ تجارة الجلد هذه، قد أعطت في وقت باكر أهمية كبيرة لهضاب فوتا المناسبة لتربية الماشية، الأمر الذي سيُسرّع من عملية التمايز الاجتماعي في هذا الكيان من السنغامبيا. وبالإضافة إلى الجلود هناك مادة العاج والكولا، وقد قدّر كورتين الكمية المصدرة سنوياً من هذه المادة الأخيرة عن طريق البحر بـ 225 طناً في أواسط القرن17م. [33]

إلا أنَّ الحديث عن ميكانيزمات تجارة الرقيق في فضائنا الجغرافي يطرح إشكالات عديدة، لنْ نتمكن هنا من حل رموزها وتطورها التاريخي، لما يتطلبه الموضوع من تمحص دقيق ودراسة متأنية لمختلف جوانبه الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية. وعلماً منا بأهمية الموضوع، ارتأينا في السابق إعطاء فكرة عن دور الرقيق في الحياة الاقتصادية والسياسية في السنغامبيا، وتبقى الإشارة هنا، إلى ظاهرة الفوضى السياسية التي شهدتها مختلف الممالك السنغامبية، لتلبية حاجيات الأرستقراطيات التقليدية من جهة، ولتغطية النقص الحاصل في اليد العاملة بالنسبة للبرتغاليين في العالم الجديد من جهة أخرى.

وهكذا، توافقت مصالح الأرستقراطيات مع رغبة البرتغاليين في استنزاف خيرات المنطقة، وظلت الوضعية على ما كانت عليه طيلة القرنين 15و 16م، حيث اعتبرت فيها السنغامبيا أول مصدر للعبيد، قبل أنْ تتراجع لصالح خليج غينيا الذي أصبح في نهاية القرن 17م المُصدر الأساسي له.

---

[30]- Fernandes (V.), 1951, Description de la côte occidentale d'Afrique Sénégal au Cap de Monte, Archipels, 1506-1510, Centro de estudos da Guiné Portuguesa. p. 305.

[31]- روفسك: هو مركز تجاري سينغالي بالساحل الأطلسي، يقع شرقي العاصمة داكار، ويُعد الآن ميناءً لتصدير الفستق، وقد تصارع كل من الفرنسيين والهولنديين والإنكليز على هذا المركز، حتى خلُص الأمر للفرنسيين.

[32]- La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 73.

[33]- Curtin (P.h.), Economic change in Precolonial Africa, Wisconsin, vol. 2 p. 228.

وبحسب إحصائيات فيليب كرتين (.Curtin Ph)، فإنَّ السنغامبيا والتي توجد في منتصف الطريق بين أوروبا وأمريكا، قد مثلت 50% من مجموع صادرات العبيد بين عامي 1526 و 1550م، والمعدل السنوي لصادرات الأنهار الجنوبية ما يقارب 5000 عبد ما بين عامي 1562 و 1640م. [34]

ورغم أنَّ هذه الأرقام تبقى نسبية، إلا أنَّ لها دلالة قوية إذا ما ربطناها بإطارها الزمني, إذْ أثرت لا محال في اختلال الوضع الديموغرافي، مما خلق وضعية سياسية واجتماعية صعبة للغاية. [35]

وفضلاً عن تراجع التجارة الصحراوية في الفترة البرتغالية لصالح التجارة الأطلسية، فإنَّ البرتغاليين خلقوا حركية تجارية بين مختلف المجالات السنغامبية. فعلى سبيل المثال، كانت المراكب التجارية البرتغالية تجلب مادة الكولا من سيراليون لتبيعها في بورتيدال (Portudal) مقابل الأقمشة القطنية، كما كانت تحصل على الأثواب من الرأس الأخضر مقابل العاج، أما عبيد ريوكاشو فقد كانوا يحصلون عليهم مقايضة بهذه السلع.

وينبغي التنبيه إلى أنَّ ذهب السنغامبيا سرعان ما فقد جاذبيته بالنسبة للتجار البرتغاليين لصالح تجارة الرقيق، وفضة مناطق النفوذ الإسباني في العالم الجديد (وخاصة البيرو)، التي تغلغل فيها أولئك التجار مستغلين عملية توحيد العرشين الإسباني والبرتغالي في الفترة ما بين 1580–1640م، ومحققين أرباحا خيالية تراوحت ما بين 100 % حسب تقديرات فرنان بروديل [36].(F. Braudel)

غير أنهَّ من المسلم به أنَّ تدخل البرتغاليين في تجارة السنغامبيا خلال القرن 16م، قد أفسح المجال لمواد وأساليب جديدة أثرت على اقتصاديات مجتمعات المناطق الساحلية وساهم في الإخلال بتوازناتها جراء الرغبة الجامحة في تحقيق الربح، وتوفير المواد الكمالية الجديدة التي حملت على بيع الكثير من الأفارقة كرقيق. كما أدى ـ بطبيعة الحال ـ إلى تغيرات عميقة، وعلى وجه الخصوص، إعادة صياغة الخارطة السياسية للسنغامبيا اعتبارا من منتصف القرن16م. [37]

---

[34]- Curtin (Ph.), Economic change in Precolonial Africa, op.cit, p.202.

[35]- إنَّ تجارة الرقيق التي مارسها الأوروبيون على امتداد القرون الثلاثة (16و 17و 18م) من أهم الأحداث التي شهدتها القارة الإفريقية على مر التاريخ، ويمكن وصفها بإبادة جماعية وجريمة ضد الإنسانية ذات أغراض متعددة؛ لأنها استهدفت الإنسان الإفريقي في ذاته ولونه ووجدانه ونفسه وعقله وحياته ومصيره ومستقبله. ولعل عملية الاسترقاق لا تكمن خطورتها فقط في أنها أصابت جسم الإنسان الإفريقي وكيانه المادي وإنما أيضا في أنها أصابت عقل الإنسان الإفريقي وكيانه المعنوي.

[36]- بروديل، الحضارة المادية والإقتصاد والرأسمالية، م.س، ج. 2، ص 135. .

[37]– La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 71.

جدول يوضح أهم المحطات التجارية الأوروبية والفترات الاستعمارية لهذه المحطات:

الفترات الاستعمارية	البلد الحالي	مدينة	اسم
البرتغال (1588-1974)	غينيا بيساو	كاشيو	قلعة كاشيو
البرتغال (1482-1637) هولندا (1637-1872) بريطانيا (1872-1957)	غانا	المينا	قلعة المينا
البرتغال (1721-1961)	بنين	أويدا	حصن ساو جواو بابتيستا دي أجودا
البرتغال (1587-1975)	الرأس الأخضر	سيداد فيلها	فورتي ريال دي ساو فيليب
البرتغال (1515-1642) هولندا (1642-1872) بريطانيا (1872-1957)	غانا	اكسيم	حصن القديس أنتوني
البرتغال (1520-1642) هولندا (1642-1872) بريطانيا (1872-1957)	غانا	شامة	حصن سان سيباستيان
البرتغال (1575-1641 ، 1644-1975)	ساو تومي وبرينسيبي	ساو تومي	حصن ساو سيباستياو

هولندا (1641-1644)			
البرتغال (1697-1974)	غينيا بيساو	بيساو	فورتاليزا دي ساو خوسيه دا أمورا
البرتغال (1820-1975)	الرأس الأخضر	Ilhéu de Sal Rei	فورتي دوكي دي براغانكا

ـ إعادة صياغة الخارطة السياسية لممالك السنغامبيا:

إنَّ المتأمل في الخارطة السياسية والاجتماعية للسنغامبيا في هذه المرحلة، سيقف جلياً على التحولات الكبرى التي عرفها المجتمع، بسبب ارتباطه بالتجارة الأطلسية، وما حملته هذه التجارة في طياتها من مفاهيم جديدة لم يكن المجتمع السنغامبي قد وصل بعد إلى كسب تقنياتها ولا مؤهلاً للتعامل معها. وقد أفرزت تجارة الرقيق ظاهرة تخصص بعض القبائل في قنص الرجال، وكانت قبيلة الماندينغ أبرزها، مما دفع بعض القبائل إلى الهجرة إلى أماكن آمنة، وخاصة الغابوية منها، حتى لا تطالها أيدي القناصة. وقد أدى ذلك إلى اختلال الفسيفساء السياسي والاجتماعي الذي عرفته السنغامبيا عبر تاريخها. [38]

بناء على ذلك، أدت هذه الوضعية إلى محاولة الأرستقراطيات التقليدية تقوية مركزها الاجتماعي والسياسي، بزرع الرعب سواء في وسط رعاياها أو خارج نطاق سيطرتها، لتبدأ بذلك مرحلة العنف السياسي، الذي كان من نتائجه تصدع النظم السياسية والاجتماعية التي طالما حافظت عليها السنغامبيا. وإنَّ اطلالة سريعة على الوضع السياسي كفيلة أنْ توضح لنا ذلك التصدع الذي بدأت تعرفه السنغامبيا ابتداءاً من القرن 16م. فمن جهة الجنوب، نسجل حضور مملكة نكابور والتي أصبحت أهم قوة بعد

[38] -Ibidem, p. 78.

انهيار مملكة مالي، لتصل في أوج ازدهارها إلى ضم جميع الممالك التي كانت توجد على ضفتي نهر غامبيا. [39]

أما إمبراطورية جولف[40] فقد تفككت هي الأخرى في منتصف القرن 16م إلى ممالك مستقلة من أهمها: كايور، وباول، و والو، بقيادة زعماء محليين دشنوا عهداً جديداً من العنف سواء في علاقاتهم مع الممالك السنغامبية أو في علاقاتهم الاجتماعية والسياسية في داخل كل مملكة، لتصبح بذلك هذه المنطقة كفوهة بركان وصل لهيبها إلى المناطق المجاورة، فدخلت هي الأخرى في الصراع الدائر حول السلطة.

ونقصد هنا منطقة فوتاتور[41]، التي بلغت أوج توسعها في ظل سلطة أسرة الدنيانكي (Denyanke) في بداية القرن 17م وذلك بقيادة صامبا لامو (Samba Lamu)، لتصبح بذلك المتحكم في تجارة أعالي نهر السنغال نحو الساحل الأطلسي. علماً بأنَّ أهمية هذه المنطقة ازدادت بدخول البيضان حلبة الصراع التجاري، وتمثل ذلك في محاولتهم السيطرة على الضفة اليسرى لنهر السنغال، التي كانت تمثل في تلك الفترة مجالاً حيوياً ومتنفساً اقتصادياً، نظراً لما اكتسبته المنطقة من أهمية في علاقتها مع التجارة الأطلسية. [42]

خلاصة القول، لم تنحصر هذه الوضعية خلال الفترة الممتدة بين القرنين 15 و 17م بل ازدادت حدة بدخول الصراع حول مجالنا السنغامبي من طرف قوتين هما: إنكلترا وفرنسا اللتين قلبتا ميزان

---

[39]– Ibidem, p.80.

[40] ـ جولف: منطقة جغرافية تقع وسط بلاد السنغال، عرفت ميلاد مملكة جولوف المهمة التي بسطت سلطتها على مختلف أرجاء السنغال قبل أن تتمزق وحدتها أواخر القرن10هـ/16م، وتنشطر إلى ممالك صغيرة هي: والو، كايور، وباول.

[41]تقع فوتا تور في الحوض الأسفل لنهر السنغال.

[42] ـ محمد السعد ولد المختار، ، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703–1860م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، ج. 1، ص. 377.

القوى في السنغامبيا لصالحهما، إلى أنْ تمكنت فرنسا في النهاية من الانفراد بالسنغامبيا ابتداءً من منتصف القرن 19.

نوع السلعة	الدولة
الذهب	إيطاليا ـ البرتغال ـ هولندا ـ فرنسا ـ إنجلترا
الملابس والأقمشة الصوفية	إيطاليا
الزباد (نوع من الطيب) والأرز والحصائر	البرتغال
الرقيق	إيطاليا ـ البرتغال ـ هولندا ـ فرنسا ـ إنجلترا
الجلود	البرتغال
العاج والكولا	البرتغال ـ هولندا
الأثواب	البرتغال
المعادن النفيسة	البرتغال ـ فرنسا ـ إنجلترا
والمنتجات الصاجية المنحوتة	البرتغال
الفلفل	البرتغال
ريش النعام	البرتغال ـ فرنسا
الكاوكاو/ الفستق/	البرتغال ـ هولندا ـ فرنسا ـ إنجلترا

جداول يوضح أهم السلع التجارية التي لعبت دورا في الاحتكاك الاقتصادي

خاتمة:

من المفيد أن تخلُص أي دراسة إلى نتائج جوهرية تجعل من العمل المُقدم يُبْرز جانباً من الفترة موضوع الدراسة بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، تتمثل في الآتي:

- تجلى الوجود أو التغلغل الأوروبي إن صحَ التعبير في منطقة الدراسة على الجانب الاقتصادي، وذلك رغبة من أوروبا في استغلال خيرات السنغامبيا خاصة الذهب، وإنهاء السيطرة العربية على التجارة.

- وفي سبيل تحقيق هذه الغاية أرسلت أوروبا عدَة بعثات استكشافية هدفها ـ إضافة إلى ما ذكرناه ـ الدوران حول إفريقيا مرورا بالساحل السنغامبي بغرض للوصول إلى الهند.
- كان من أهم نتائج ظهور الفكر المركنتالي، هو سيطرة الأوربيين على التجارة العالمية، وانتعاش التجارة الأطلسية (الذهب ـ الرقيق ـ العاج ـ الجلود)، اللذان مكنا أوروبا من جني ثروات هائلة، الأمر الذي أدى إلى تدهور الأوضاع المعاشية لسكان السنغامبيا، ودخول البلاد في دوامة الفوضى والتفكك السياسي.
- هذه هي إذاً مجمل النتائج التي توصلنا إليها خلال هذه الدراسة، والتي تجعلنا في حقيقة الأمر أمام سؤال غاية في الأهمية، نتمنى أن تتاح لنا الفرصة في الإجابة عليه في دراسة أخرى في المستقبل القريب، وهو: (ما هو الدور الذي لعبه العامل الاقتصادي في الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية خلال القرن 19م؟)

قائمة المصادر والمراجع :

أولاــ المصادر والمراجع العربية:

- ابن محمذن، محمدو، 2000، المجتمع البيضاني في القرن 19: قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية.

- بروديل، فرناند، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، ترجمة، مصطفى ماهر، ج 3, باريس -

الحريري، محمود محمد، 1986، ساحل شرق إفريقيا منذ فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي، القاهرة، دار المعارف.

- السعدي، عبد الرحمن، 1981، تاريخ السودان، وقف على طبعه من غير تغيير نصه مع ترجمته للفرنسية أوكتاف هوداس بمشاركة تلميذه السيد بنوة، باريس، ميزونوف.

- عيسى، عبدالله، "الإسلام كمرجعية لمملكة مالي خلال القرن 14م"، مجلة البيان، الرياض 2014 عدد 322.

- كعت، محمود، 1981، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، وقف على طبعة من غير تغيير نصه مع ترجمته للفرنسية أوكتاف هوداس و موريس دولافوس، باريس، ميزونوف.

- كي ـ زيربو، جوزيف، 2001، تاريخ إفريقيا السوداء، ترجمة، عقيل الشيخ حسين، مصراتة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

- محمد حسين، أحمد عبد الدايم، 2013، تاريخ إفريقيا الاقتصادي في عصر ما قبل الاستعمار، القاهرة، منشورات وحدة الإعلام والتوعية بالشؤون الإفريقية، معهد الدراسات الإفريقية.

- هوبكنز، أ.ج.، (المعروف بـ: توني هوبكنز)، 1998، التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، تقديم، محمد عبد الغني سعودي، ترجمة من الإنكليزية، أحمد فؤاد بلبع، القاهرة، المشروع القومي للترجمة.

- ولد السعد، محمد المختار، 2002، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703–1860م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية.

ثانيا ـــ المصادر والمراجع الأجنبية:

Barry (B.),1988, La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traitenégriére, Islam et conquête coloniale, Paris, éd. L'Harmattan.

Curtin (Ph.), 1975, Economic change in Precolonial Africa, Wisconsin, vol. 2.

Fernandes (V.), 1951, Description de la côte occidentale d'Afrique Sénégal au Cap de Monte, Archipels, 1506-1510, Centro de estudos da Guiné Portuguesa.

Godinho, (M. V.), 1969, l'Economie de l'empire portugais aux XV XVI siècle, Paris, MSH.

Saint- Martin (J.Y.),1989, Le Sénégal Sous le second empire: naissance d'un empire colonial, 1850-1871, Paris, Karthala .

Walter (R.), 1973, How Europe Underdeveloped Africa, London.